

علماء العقاقير النباتية في الحضارة العربية الإسلامية

د. عبد الكريم اليافي

يمكن بوجه عام تصنيف العلماء الذين اهتموا بالنباتات في الحضارة العربية الاسلامية اصنافاً ثلاثة .

١ - يأتي في الصنف الأول اللغويون الذين اتجهوا الى التدوين اللغوي فالتفوا في النبات كتباً ورسائل في أسماء النبات وأنواعه وأجزائه وربما قصروا بعض رسائلهم على نوع واحد منه . أشهرهم عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت عام ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) ألف « كتاب النبات والشجر » و « كتاب النخل والكرم » ولكن هذا الكتاب الثاني مختلف في صحة نسبته الى الأصمعي ، وابن الأعرابي (ت ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م) له « كتاب النبات » ، وابن السكيت (ت ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م) له « كتاب النبات والشجر » وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) له كتاب « العشب والبقل » و « كتاب الشجر » ، ثم أبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) له « كتاب النبات » في ست مجلدات وهو من أجل كتبه . وما جاء في هذه الكتب والرسائل من كلمات انتقل كله الى المعجمات العربية اللفظية أمثال لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروزبادي ، وتاج العروس للزبيدي والى المعجمات المعنوية أمثال المخصص لابن سيده .

٢ - المؤلفون الفلاسفة والأدباء الذين أدخلوا بحوث النبات في كتبهم الواسعة والعامة أمثال « رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا » (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) و كتاب « الاعتبار في الحكمة » لأبي البركات البغدادي (ت ٥٤٧ هـ / ١١٥٣ م) وعجائب المخلوقات لذكرى القزويني (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) ونهاية الأرب لأحمد بن عبد الوهاب النويري (٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م) وغيرها . . .

٣ - الأطباء والصيدلانيون والنباتيون الذين عُنُوا بالعقاقير الطبية النباتية خاصة وبالزراعة عامة •

ولقد برع أولئك العلماء في كل ميدان سلكوه من تلك الميادين براعة تذهل الباحثين. ونحن هنا نريد أن ننوه ببعض الأعلام في هذا المجال الأخير ممن عُنُوا بالنباتات الطبية •

★ ★ ★

ورثت الحضارة العربية تراث الأقوام الخالية العلمي • ولما كان الاسلام يحث على العلم ويعتبره فرضاً على المرء حرص العرب على نقل ذلك التراث وتأمله والزيادة فيه زيادة واسعة • ونرى أنه لم يلق العلم من الحظوة والاهتمام عند الأمم قاطبة ما لقيه عند العرب في العصور الوسطى ، وأن العلوم التي تلقفوها لم تشهد عند أمة من الأمم السالفة ما شهدته من تطور على أيدي العلماء الذين نبغوا في ظلال الحضارة العربية الوارفة • هذا القول يصح إطلاقه في علم النبات خاصة • فلقد انتشر العرب في الأرض ذلك الانتشار الواسع ونشأت أجيال حصلت لهم خبرة كبيرة بالنبات ومعرفة دقيقة بها بالاضافة الى ما أخذوه عن كتب اليونان ومعارف الهنود والفرس والبربر والسريان واللاتين الاسبان وغيرهم •

ولقد كان التراث اليوناني الذي تناقلوه في علم النبات قليلاً بالقياس الى الفلسفة والطب • فالكتب اليونانية النباتية التي ترجمت عن اليونانية ضئيلة وأهمها « كتاب النبات » لأرسطو • وقد وضع تفسيراً له نيقولاوس الدمشقي ونقل هذا التفسير الى العربية اسحاق بن حنين •

و « كتاب الحشائش » كما سماه العرب لديسقوريدس وهو طبيب حشائشي شامي •

وكتاب في النبات لجالينوس يذكره المؤلفون وينقلون عنه ويبدو أنه قد ضاع نصه العربي ولم تبق الا الترجمة اللاتينية عن هذا النص •

كتاب ديسقوريدس كان له أبلغ الأثر في تيار الثقافة الصيدلانية العربية وقد دعاه العرب أيضاً بالمقالات الخمس • مؤلفه نبغ في بلاد الشام فهو من عين زربي في قيليقيا ، اهتم بالعقاقير الطبية النباتية وساح يبحث عن الحشائش ويتفهم خواصها مدة طويلة ثم كتب ذلك الكتاب في سنة ٧٨ ميلادية • ونظراً لمكاته عند

المؤلفين العرب واعتمادهم عليه ومناقشتهم لما جاء فيه نخصه بشيء من التفصيل يتعلق بترجمته وبالحرص على استيعاب كل ما جاء فيه . ترجمه بمدينة السلام اصطفن بن بسيل في زمن المتوكل من اليونانية الى العربية وتصفح ذلك حنين بن اسحق فصيح الترجمة وأجازها . « فما علم اصطفن من تلك الأسماء اليونانية في وقته اسماً له في اللسان العربي فسرّه بالعربية وما لم يعلم له في اللسان العربي اسماً تركه في الكتاب على اسمه اليوناني إتكالاً منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسرّه باللسان العربي ، اذ التسمية لا تكون الا بالتواطؤ من أهل كل بلد على أعيان الأدوية بما رأوا وأن يسموا ذلك اما باشتقاق واما بغير ذلك من تواطئهم على التسمية . فاتكل اصطفن على شخوص يأتون بعده ممن عرف أعيان الأدوية التي لم يعرف هولها اسماً في وقته فيسميها على قدر ما سمع في ذلك الوقت» ، كما ورد في كتاب ابن أبي أصيبعة .

وقد حرص العرب على استقصاء هذا الكتاب في شتى مناطق حضارتهم وانتقل الكتاب الى الأندلس . وقد يكون من المناسب أن نتعرف المراحل التي مر بها هذا الكتاب . فقد أهدى ملك القسطنطينية الى الملك الناصر عبدالرحمن بن محمد بالأندلس هدايا منها كتاب ديسقوريدس مكتوباً بالآغريقية وأرسل اليه بعد ذلك راهباً يدعى نيقولا تعاون هو وجماعة من الأطباء الأندلسيين في تفسير العقاقير الواردة في الكتاب والدلالة على أعيانها . وألف ابن جليل الذي أدرك الراهب نيقولا وجماعته وصحبهم كتاباً في «تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس» ولسنا نعرف بالضبط هل ترجم كتاب ديسقوريدس ترجمة جديدة بالأندلس أو بقي الاعتماد على ترجمة اصطفن بن بسيل وتصحيح حنين لها ثم ادخال بعض التعديل والايضاح على تلك الترجمة .

وكان كتاب ديسقوريدس قد نقله حنين بن اسحاق من اليونانية الى السريانية لرئيس الأطباء بغثيشوع بن جبريل ثم نقل الكتاب من السريانية الى العربية أبو سالم الملطي نقلاً فيه شيء من اللكنة السريانية في زمن السلطان أبي بن تمر تاش أحد الملوك التركمانيين في ديار بكر وماردين وميافارقين في القرن السادس الهجري (القرن الذي عاش فيه ابن زهر) . ولما لم تكن الترجمة واضحة

ولا سليمة كلف السلطان نفسه مهران بن منصور بن مهران أن ينقله مرة جديدة الى العربية نقلاً سليماً ودقيقاً .

وأياً كان الأمر فإن كتاب الطبيب الشامي الذي كتبه بالاغريقية غداً مصدراً مهماً بعده لجالينوس وليحيى النحوي ولأمثالهما في الحضارة الاغريقية المتأخرة ، ثم للعلماء والأطباء العرب في المشرق والمغرب فألفوا في الأدوية المفردة كتباً استفادوا فيها من ذلك الكتاب وزادوا عليه زيادات واسعة جداً بما نقلوه عن المصادر الفارسية والهندية وبما توارثوه من المعارف العربية القديمة في هذا الشأن وبما عرفوه هم أنفسهم وما رسوه بخبرتهم وتجاربهم ، وبذلك تجاوزوا تجاوزاً كبيراً تلك المعارف المكتوبة باللغة اليونانية . وقد ألف ابن جليل نفسه « مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه مما يستعمل في صناعة الطب وما لا يستعمل لكيلا يغفل ذكره » . وقال ابن جليل : « ان ديسقوريدس أغفل ذلك ولم يذكره اما لأنه لم يره ولم يشاهده عياناً واما لأن ذلك كان غير مستعمل في دهره وأبناء جنسه » (طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة) .

وبحث المستشرق مكس ميرهوف عن المؤلفين في هذا المضمار ابان الحضارة العربية الاسلامية من خلال كتاب القفطي وكتاب ابن أبي أصيبعة فأحصى منهم مائة وعشرة مؤلفين كتب بعضهم أكثر من كتاب واحد في هذا الموضوع (مقدمة المستشرق لكتاب « شرح أسماء العقار » لموسى بن ميمون) . ومع ذلك بقي كتاب ديسقوريدس ركناً من أركان الصيدلة العربية الاسلامية .

وأكثر المؤلفين ذكروا هذا الكتاب ونوهوا بشأنه ولكنهم في بعض الأحيان نبهوا على الزيادات التي زادوها في هذا الميدان .

ولا شك أن الأسماء اليونانية لبعض النباتات دخلت العربية على هذا الطريق وعلى طريق ترجمات كتاب الطبيب المشهور جالينوس التي انضمت معارفها الى التراث الطبي والصيدلاني العربي . وذكرت الكتب العربية أصول تلك الأسماء . ولكن الى جانب بعض الألفاظ اليونانية دخلت ألفاظ فارسية وسريانية وهندية وبربرية واسبانية بحيث أصبح أحياناً للعقار الواحد أسماء متعددة أي

مترادفات تبث البلبلة والحيرة لدى الباحثين والعلماء في الاهتداء اليها اذا غاب عنهم معنى لفظ مرادف عند حرصهم على التدقيق والتحقيق .

وهذا ما حفز العالم الكبير أبا الريحان البيروني أن يعتمد في أواخر حياته الى تأليف كتابه « الصيدنة » (ت عام ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م) (ترجمه الى اللغة الروسية مع تحقيق علمي واسع عبید الله کریموف من أذربكستان كما تُرجم الكتاب الى اللغة الفارسية قديماً والانكليزية حديثاً) .

ولما كان أبو الريحان يشارف الثمانين من عمره اذ ذاك احتاج لمن يعاونه في جلب العقار ليتأمله ويصفه عن عيان ، فهو لا يكتفي بالنقل بل يعتمد على المشاهدة والتدقيق فوجد عالماً طبيباً اسمه أبو حامد أحمد بن محمد النهشعي كان مديراً لمستشفى أو بيمارستان . وقد نوه بهذه المعاونة اذ قال : « وقد قام بحق المعاونة في اضافة ما معه الى ما معي ودوام السعي في مساءلة من له بصير بالصيدنة بحسب المكان والزمان ثم حمل الأدوية المفردة الى ما قبلي لأصفها عن عيان . ونبّه ، وهو المدقق المحقق ، على ما يلحق بالكتب المترجمة من اليونانية الى العربية من تحريف وغموض واستعمال ألفاظ أجنبية تستر المراد دون فهم دلالاتها فقال : الا أننا لا نثق بها ولا نأمن التغاير في نسخها ، وللتراجمة فيها خيانة أخرى هي ترك ما يوجد في أرضنا من العقاقير وفي لغة العرب اسم لها على حاله باليونانية حتى يحوج بعد الترجمة الى تفسير كالكرفس الجبلي والجزر البري والزركش^(١) ولحية التيس^(٢) وأمثالها فانهم لم ينقلوها الى العربية » .

وهو يكره الغموض الناشئ عن استعمال ألفاظ غريبة كما يكره الاستغلال المالي الذي قد يستغله باعة العقاقير . ويورد قصة وقعت في عصره نذكرها لطرافتها ولقلة شيوع كتاب الصيدنة . يقول : « وفي الاحاطة باسم الدواء الواحد بصنوف اللغات فوائد . وأتذكر أن بعض أمراء خوارزم اعتل وأنفد اليه من نيسابور نسخة دواء لعلته وعرضت على الصيادنة فلم يهتد لعقار واحد فيها الا واحد منهم ذكر أنه عنده واشتري منه بخمسمائة درهم صرف خمسة عشر وأخرج اليهم أصل السوسن فاستنكروه وقال : ما بعتمكم الا ما جهلتموه من الاسم دون الجسم » .

ودفعاً للغموض ومنعاً للاستغلال وحباً في نشر العلم وايضاح مدلولات الألفاظ ذكر مؤلف الصيدنة الأدوية المفردة والعقاقير في كتابه بلغات عدة كالرومية والفارسية والسريانية والخوارزمية والسنسكريتية والعبرية وبلهجات شتى اذ ذاك كالسندية والبخارية والترمذية والبلخية والطخارية وغيرها . فكتابه يتجاوز مجرد الصيدنة الى صفة معجم متعدد اللغات واللهجات . هذا ولفظا الصيدنة والصيدلة سواء . ومن المؤسف أن يبقى هذا الكتاب المهم في اللغة العربية غير مطبوع طبعاً محققاً وواسع النشر .

من أشهر العلماء الذين اشتغلوا بالطب ثابت بن قره (ت ٢٨٨ / ٩٠١) نشأ بخران ثم قصد بغداد واشتغل بالفلسفة والطب وله كتاب « المسائل الطبية » وينسب اليه كتاب « الذخيرة » في الطب . والغالب انه من صنع تلامذته . وبحوثه تشتمل على ذكر عقاقير نباتية كثيرة .

وكذلك من أقدم الأطباء أبو الحسن علي بن ربن الطبري له كتاب « فردوس الحكمة » استفاد مؤلفه من ترجمات حنين بن اسحاق وتلامذته وهو معلم الرازي صناعة الطب عاش في القرن الثالث الهجري أو التاسع الميلادي .

وقد فاقه تلميذه أبو بكر الرازي (ت حوالي ٣١١ / ٩٢٣) له تصانيف جمة تزيد على ٢٣٢ كتاباً ورسالة من أهمها « الحاوي » و « الطب المنصوري » وكلاهما ترجم الى اللاتينية وفيهما يرد ذكر عقاقير متعددة تعتمد في المداواة والتغذية .

هذا ومن أهم الكتب الطبية على الاطلاق كتاب « القانون » للشيخ الرئيس ابن سينا معاصر أبي الريحان البيروني . وكتاب القانون هذا الذي تناقلته دور الطب في الشرق والغرب يشتمل على بحث واف في الأدوية المفردة والمركبة . وقد طبع بنصه العربي في رومة عام ١٥٩٣ وهو مركز المراكز في تاريخ الطب العالمي .

من أقدم من ألف في مفردات الأدوية والعقاقير الطبية في المغرب اسحاق بن عمران وهو بغدادى الأصل استقدمه زيادة الله بن الأغلب في تونس فاستوطن

القيروان ، وبه ظهر الطب بالمغرب . من كتبه المتعددة كتاب الأدوية المفردة . وقد قتل حول عام ٢٥٢ هـ / ٨٦٥ م .

ثم اسحق بن سليمان الاسرائيلي وهو كحّال من أهل مصر قدم القيروان ولازم اسحق بن عمران وتلمذ له . عمره طويلاً . له كتاب الأغذية والأدوية . وكتبه من أوائل الكتب التي ترجمها قسطنطين الافريقي الى اللاتينية . مات عام ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م .

ثم أبو جعفر أحمد بن ابراهيم المعروف بابن الجزار من أهل القيروان وهو من أسرة الجزار المعروفة بالطب فهو طبيب ابن طبيب وعمه أبو بكر طبيب . وكان ممن لقي اسحاق بن سليمان وصحبه وأخذ عنه . وقد شهر بعلمه وفضله ونزاهته . له عدة كتب جيدة يهمنها منها كتابان في الصيدلة هما في الأدوية المفردة ويعرف « بالاعتماد » وكتاب الأدوية المركبة ويعرف « بالبغية » كما أن له كتاباً طريفاً اسمه « طب الفقراء » . وهو رسالة في أبدال الأدوية . هذا وان الجامعة العربية احتفلت بذكره هذا العام . وقد ترجمت طائفة من كتبه الى اللاتينية وبعضها الى اليونانية . مات عام ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م .

كتب هؤلاء الأطباء كانت عمدة الطب وركيزته في المغرب وفي اسبانيا . وقد كانت القيروان متألفة بالمعارف والعلوم .

وقد نبغ في اسبانيا العربية الاسلامية كبار الأطباء الذين اشتغلوا الى جانب الطب بتركيب العقاقير الطبية والتأليف فيها . نوّه بهم ابن أبي أصيبعة .

من الذين كتبوا في الصيدلة سعيد بن عبد ربه وهو ابن أخي أبي عمرو أحمد ابن محمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد . لسعيد هذا من الكتب كتاب الاقرباديين . مات نحو عام ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م .

ولم يخل بعض الأطباء من أن يصححوا أخطاء بعض الكتب السابقة . فقد نشأ عبد الرحمن بن اسحق بن الهيثم القرطبي (وهو غير الحسن بن الهيثم الطبيب والرياضي المشهور) وغدا طبيباً يعني بالحشائش والمفردات ، وكان بين

الجماعة الذين رافقوا نقولا الراهب وصححو ترجمة كتاب ديسقوريدس • له كتاب «الاقتصاد والايجاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد» • وله أيضاً كتاب «الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء» • (توفي عام ٣٤٠ هـ - ٩٥١ م) •

واختص بعض العلماء الى جانب علمهم الواسع بخبرة بعض الكتب القديمة • فلقد كان أحمد بن أبي الأشعث الذي عاش في الموصل خبيراً بكتب جالينوس مطلعاً على أسرارها وشرح كثيراً منها وهو الذي فصل كل واحد من الكتب الستة عشر التي لجالينوس الى جمل وأبواب وفصول وقسمها تقسيمات لم يسبقه الى ذلك أحد • وكذلك فصل بعض كتب أرسطو • ومن كتبه الكثيرة التي ألفها «كتاب الأدوية المفردة» (ت نحو ٣٦٥ هـ / ٩٧٥) •

ومن الذين ألفوا في الطب وترجموا للأطباء وكتبوا في المفردات وأعانوا على شرح كتاب ديسقوريدس وأكملوا ما غاب عنه في كتابه لعهدهم ابن جلجل (سليمان بن حسان) وقد مرت الإشارة الى ما ألف في هذا الميدان • عاش ابن جلجل في أيام هشام المؤيد بالله • ومات عام ٣٧٢ هـ - ٩٨٢ م •

ومن الأطباء المشهورين في المشرق علي بن العباس المجوسي فارسي الأصل صنف للملك عضد الدولة فناخرو بن بويه كتاب «كامل الصناعة الطبية» وشهر بالكتاب الملكي يذكر فيه خواص الأدوية المفردة التي تتألف من العقاقير النباتية (ت نحو ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م) •

ومن أشهر الأطباء الأندلسيين أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي • كان طبيباً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة • له كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» وهو من أشهر الكتب الطبية وقد توفي سنة ٤١٠ هـ ١٠١٩ م وكتابه ترجم الى اللاتينية باسم Liber servitoris وكتابه هذا الواسع يبحث الجزء السابع عشر منه في الأدوية المفردة ، وقد تداول كتابه الأطباء من بعده وذكروه في كتبهم •

وكانت الأدوية الناجعة من السلع التي يتاجر بها بين المشرق والمغرب • فقد ذكر ابن أبي أصيبعة نقلاً عن ابن جلجل أن الطبيب الحراني ورد من المشرق الى الأندلس «وكانت عنده مجربات حسان بالطب فاشتهر بقرطبة وحاز الذكر فيها

وأدخل الأندلس معجوناً كان يبيع الشربة منه بخمسين ديناراً لأوجاع الجوف فكسب به مالا فاجتمع خمسة من الأطباء واشتروا منه شربة من ذلك الدواء وانفرد كل واحد منهم بجزء يشمه ويدوقه ويكتب ما تأدّى إليه منه بحسه . ثم اجتمعوا واتفقوا على ما حدسوه وكتبوا ذلك . ثم نهضوا الى الخراشي وقالوا له : قد نفعلك الله بهذا الدواء الذي انفردت به ، ونحن أطباء اشترينا منك شربة وفعلنا كذا وكذا وتأدّى إلينا كذا وكذا . فان يكن ما تأدّى إلينا حقاً فقد أصبنا والا فأشركنا في علمه فقد انتفعت . فاستعرض كتابهم فقال : ما أعديتم من أدويته دواء ، لكن لم تصيبوا تعديل أوزانه . وهو الدواء المعروف بالمغيث الكبير فأشركهم في علمه وعرف من حينئذ بالأندلس . « والخلاصة أنهم بالتعبير الحديث أحسنوا تحليل المعجون تحليلاً كيفياً ولم يستطيعوا تحليله تحليلاً كميّاً .

ومن العلماء الأطباء الذين ألفوا بالأندلس في الأدوية عبد الرحمن بن محمد ابن وافد اللخمي . كان في أيام ابن ذي النون بمدينة طليطلطة وتوزّر له .

نقل ابن أبي أصيبعة عن القاضي صاعد أن ابن وافد « تمهّر بعلم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد في عصره وألف فيها كتاباً جليلاً لا نظير له جمع فيه ما تضمن كتاب ديسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان في الأدوية المفردة ورتبه أحسن ترتيب . قال : وأخبرني أنه عانى جمعه وحاول ترتيبه وتصحيح ما ضمّنه من أسماء الأدوية وصفاتها وأودعه إياه من تفصيل قواها وتحديد درجاتها نحواً من عشرين سنة حتى كمل موافقاً لفرضه وتم مطابقاً لبغيته . وله في الطب منزع لطيف ومذهب نبيل وذلك أنه كان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية أو ما كان قريباً منها ، فاذا دعت الضرورة الى الأدوية فلا يرى التداوي بمركبها ما وصل الى التداوي بمفردها ، فان اضطر الى المركب منها لم يكثر التركيب بل اقتصر على أقل ما يمكنه منه . له نوادر محفوظة وغرائب مشهورة في الإبراء من العلل الصعبة والأمراض المخوفة بأيسر العلاج وأقربه . وقد توفي عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م .

ومن الذين تألقوا في الطب يحيى بن جزلة البغدادي توفي في بغداد عام (٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م) كان امام الطب في عصره له كتاب « منهاج البيان فيما

يستعمله الانسان» رتبه على الحروف وجمع فيه أسماء الحشائش والعقاقير والأدوية وقد ترجم الى اللاتينية .

وفي بلدة دانية بشرق الأندلس نبغ أبو الصلت أمية بن عبد العزيز في صناعة الطب وغيرها من العلوم وكان أديباً ممتازاً وشاعراً مجيداً . له كتاب في الأدوية المفردة توفي سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م .

وأمية هذا ظهر في القرن السادس الهجري أهم عصور الأندلس علماً وثقافة وحضارة وقد تتابع بعده كوكبة من العلماء والفلاسفة والأطباء تطاير صيتهم . ومن أبرزهم أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة ، علامة وقته وأوحد زمانه . من كتبه الطبية « كلام على شيء من كتاب الأدوية لجالينوس » و « كتاب التجربتين على أدوية ابن وافد » . اشترك في تأليف هذا الكتاب ابن باجة وأبو الحسن سفيان . توفي ابن باجة ٥٣٣ هـ / ١١٣٩ م . ومن تلاميذه القاضي ابن رشد .

أبو الوليد هذا مولده ومنشؤه بقرطبة وقد اشتهر بتمحيصه أقوال أرسطو وشرحه لها واتباعه اياها ، وترك أثراً ضخماً في التفكير الأوربي بعدما نقلت كتبه وآراؤه الى اللاتينية فاثَّرت في كبار مفكريها ولا سيما القديس توماس الاكوينى . ولكنه كان أيضاً متميزاً في علم الطب . وله في الطب كتاب الكليات . يبحث السفر الخامس من الكليات الأدوية والأغذية . ولا بن رشد أيضاً تلخيص كتاب المزاج لجالينوس وتلخيص كتاب القوى الطبيعية لجالينوس وتلخيص أول كتاب الأدوية المفردة لجالينوس ومقالة في الترياق ، الى جانب كتبه الأخرى الكثيرة . توفي ابن رشد ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م .

وقد يشتهر المرء بعلم ولكنه يمارس أيضاً آخر ويؤلف فيه . فلقد شهر الشريف الادريسي بكتابه الجغرافي الواسع « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ولكنه اهتم بالنبات وله كتاب يذكره المؤلفون وهو « الجامع لأشتات النبات » ، ومن المعلوم أن الادريسي عاش ردهاً في بلاط روجار الثاني ملك صقلية مقرباً مكرماً (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٦ م) :

ومن كبار علماء الزراعة يحيى بن محمد بن العوام الاشبيلي . له كتاب « الفلاحة الأندلسية » ورسالة في تربة الكرم (ت نحو ٥٨٠ هـ / ١١٨٥ م) . وقد نوه بطريقة التنقيط في ري النبات . وقد سبق العرب الى هذه الطريقة .

وقد تتردد الموهبة في التحقق ولكنها تظهر أخيراً كثيرة المسالك . فلقد كان أبو الفضل بن عبد الكريم المهندس « في أول أمره نجاراً وينحت الحجارة أيضاً وكان تكسبه بصناعة النجارة وله يد طولى فيها » كما يذكر ابن أبي أصيبعة وكان منشؤه بمدينة دمشق . ثم بدأ يهتم بالرياضيات ليزداد علماً وتجويداً في صناعة النجارة ثم اشتغل بصناعة النجوم وعمل الزيجات ، ثم اهتم بصناعة الطب وبرع فيها ومما ألف كتاب في الأدوية المفردة على ترتيب حروف أبجد . توفي عام ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م .

لا غرو بعد هذا العرض أن يستبين التقدم الكبير الذي تقدمه علم الطب ولا سيما البحوث التي تتناول الأدوية والعقاقير . وذلك أن الأطباء العرب المسلمين كانوا يعتقدون مضمون الحديث الشريف : « ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء » . فكانوا يلتمسون الشفاء في العقاقير الموجودة على الأرض من معدنيات ونبات على وجه الخصوص . ولذلك اشتدت عنايتهم بالحشائش وتلقفوا خصائصها من مختلف المصادر ولا سيما اليونانية وبحثوا هم أنفسهم في الأقطار وجربوا ما استطاعوا حتى فاقوا الأمم جميعاً قبلهم ولعهدهم .

في هذا العصر الغني بالثقافة والثري بالعلوم ظهر بالأندلس بيت بني زهر الطبي وبرز بينهم مؤلف في العقاقير الى جانب تأليفه في الطب وهو أبو العلاء بن زهر أبو مؤلف كتاب التيسير . كتب في هذا الموضوع كتاب « الخواص » وكتاب « الأدوية المفردة » ومقالة في الرد على ابن سينا في مواضع من كتابه في الأدوية المفردة ، ألفها لابنه أبي مروان ومقالة في بسط رسالة يعقوب بن اسحق الكندي في تركيب الأدوية . فلا غرو أن رسنخ هذا الميل العميق في نفس ولده الألمي وهو ميل استحوذ عليه الاستحواذ كله .

وفي زمن أبي العلاء هذا وصل كتاب القانون لابن سينا الى المغرب . حمل نسخة منه تاجر أتى بها من العراق الى الأندلس بولغ في تحسينها وأتحف بها

أبا العلاء تقريباً اليه ولم يكن هذا الكتاب وقع اليه قبل ذلك . يروى أنه لما تأمله « ذمه واطرحه ولم يدخله خزانة كتبه وجعل يقطع من طرره ما يكتب فيه نسخ الأدوية لمن يستفتيه من المرضى » . وأغلب الظن عدم صحة هذه الرواية التي أريد بها اظهار نبوغ طبيب متفوق لعده . والا كيف يكتب مقالته في الرد على ابن سينا وهي التي أشرنا اليها آنفاً . توفي أبو العلاء عام ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م .

وخلفه ابنه عبد الملك أبو مروان ت ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م أعظم أطباء عصره ألف عدة كتب من أشهرها كتاب «الأغذية» وكتاب « التيسير في المداواة والتدبير » ذكر فيه كثيراً من الأدوية المفردة التي تتألف من عقاقير نباتية وقد نشرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سنة ١٩٨٣ .

وفي الأندلس ظهر أحمد بن محمد الغافقي المتوفى عام ٥٦٠ هـ . كان طبيباً وعقاقيرياً بل من أكبر علماء النبات . من تصانيفه كتاب « الأدوية المفردة » . وكتابه كان غذاء سائغاً في التأليف لمن جاء بعده ولا سيما لابن البيطار .

وكذلك نشأ موسى بن ميمون في الأندلس وتوفي في القاهرة عام ٦٠٥ هـ / ١٢٠٤ م مؤلف كتاب « شرح أسماء العقار » الذي نشره المستشرق مكس ميرهوف .

ثم جاء العشاب ابن الرومية أحمد بن محمد الاشبيلي ويدعى أيضاً بالنباتي . زار مصر والشام والعراق والحجاز مدة سنتين يأخذ عن شيوخها الحديث وعن منابتها الأعشاب . فاق أهل زمانه في معرفته بالنبات وتمييز العشب . توفي عام ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م له « تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس » و « أدوية جالينوس » و « الرحلة النباتية » يصف فيها رحلته العلمية .

ومن الأطباء الموسوعيين الشيخ موفق الدين عبداللطيف البغدادي ويعرف بابن اللباد سافر في بلاد كثيرة له كتاب « حقيقة الدواء والغذاء » . وله كتاب آخر في النبات وكتاب اختصر فيه كتاب أبي حنيفة الدينوري (ت ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م) .

ومن أبرز علماء النبات العرب رشيد الدين بن أبي الفضل الصوري من أطباء الشام ومن أعلمهم . ولد بمدينة صور ونشأ بها ثم انتقل عنها واشتغل بصناعة

الطب وبرز فيه ومن أساتذته الشيخ موفق الدين عبداللطيف البغدادي . ومن تلامذته ابن أبي أصيبعة . يذكر عنه تلميذه هذا « أنه كان يستصحب مصوراً ومعه الأصباغ والليق' على اختلافها وتنوعها . فكان يتوجه الى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات فيشاهد النبات ويحققه ، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ويصور بحسبها ويجهتد في محاكاتها ، ثم أنه سلك أيضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً ، وذلك أنه كان يري النبات للمصور في ابيان نباته وطرأوته فيصوره ، ثم يريه اياه أيضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه اياه أيضاً في وقت ذواه ويبسه فيصوره ، فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر اليه في الكتاب وهو على أنحاء ما يمكن أن يراه في الأرض فيكون تحقيقه له أتم ومعرفته له أبين » . له كتاب « الأدوية المفردة » . وهو كتاب بدأ بعمله في أيام الملك المعظم (الأيوبي) وجعله باسمه واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة وذكر أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون كما نوه بذلك ابن أبي أصيبعة (توفي السوري ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م) .

وأهم الموسوعات المتأخرة في هذا الميدان خلال القرن السابع الهجري كتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » لابن البيطار (عبد الله بن أحمد) . وهو كتاب واسع الشهرة والانتشار . وابن البيطار ما لقي " أندلسي هاجر الى دمشق وأقام فيها حيث توفي عام ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م . وهو أستاذ ابن أبي أصيبعة .

موضوع الكتاب كما كتب مؤلفه في المقدمة « الأدوية المفردة نذكر فيه ماهياتها ومنافعها ومضارها واصلاح ضررها والمقدار المستعمل من جرورها أو عصارتها أو طبيخها والبدل منها عند عدمها » . ونظراً لمكانة الكتاب نورد مزاياه كما نوه بها المؤلف حين سماها الأغراض ، ولعلنا نعطي بذلك نمطاً من بيان المؤلفين القدماء وحسن تدقيقهم .

« الغرض الأول لهذا الكتاب استيعاب القول في الأدوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام والاستمرار عند الاحتياج اليها في ليل كان أو نهار ، مضافاً الى ذلك ذكر ما ينتفع به الناس من شعار أو دثار ، واستوعبت فيه جميع ما في

الخمس المقالات من كتاب الأفضل ديسقوريدس بنصيب وكذا فعلت بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في الست المقالات من مفرداته بنصه ثم ألحقت بقولهما من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكره ووصفت فيها عن ثقات المحدثين وعلماء النباتيين ما لم يصفاه ، وأسندت في جميع ذلك الأقوال الى قائلها ، و عرفت طرق النقل فيها بذكر ناقلها ، واختصت بما تم لي به الاستبداد وصح لي القول فيه ووضح عندي عليه الاعتماد .

الفرض الثاني صحة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرره عن المتأخرين .
فما صح عندي بالمشاهدة والنظر وثبت لدي بالخبر لا بالخبر ادخرته كنزاً سرياً ، وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيه سوى الله غنيا . وما كان مخالفاً في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية للصواب والتحقيق أو أن ناقله أو قائله عدلا فيه عن سواء الطريق نبذته ظهرياً ، وهجرته ملياً ، وقلت لناقله أو قائله : لقد جئت شيئاً فرياً . ولم أ'ح'اب في ذلك قديماً لسبقه ، ولا محدثاً اعتمد غيري على صدقه .

الفرض الثالث ترك التكرار حسب الامكان الا فيما تمس الحاجة اليه لزيادة معنى أو تبيان .

الفرض الرابع تقريب مأخذه بحسب ترتيبه على حروف المعجم مقفّى ليسهل على الطالب ما طلب من غير مشقة ولا عناء ولا تعب .

الفرض الخامس التنبيه على كل دواء وقع فيه وهم أو غلط لمتقدم أو متأخر لاعتماد أكثرهم على الصحف والنقل واعتمادهم على التجربة والمشاهدة حسبما ذكرت قبل .

الفرض السادس في أسماء الأدوية بسائر اللغات المتباينة في السمات مع أنني لم أذكر فيه ترجمة دواء الا وفيه منفعة مذكورة أو تجربة مشهورة . وذكرت كثيراً منها بما يعرف به في الأماكن التي تنبت فيها الأدوية المسطورة كالألفاظ البربرية واللاتينية وهي أعجمية الأندلس اذ كانت مشهورة عندنا وجارية في

معظم كتبنا ، وقيدت ما يجب تقييده منها بالضبط وبالشكل والنقط تقييداً يؤمن معه من التصحيف ويسلم قارئه من التبديل والتحريف اذ كان أكثر الوهم والغلط الداخل على الناظرين في الصحف انما هو من تصحيفهم لما يقرؤونه أو سهو الوراقين فيما يكتبونه ، وسَمَّيْتُهُ الجامع لكونه جمع بين الدواء والغذاء واحتوى على الغرض المقصود مع الايجاز والاستقصاء » .

في هذا النص الذي أوردناه – وان تطاول – بيان كاف للمنهج العلمي الدقيق الذي سلكه المؤلف . على أن قراءة الكتاب وتأمله أكثر ايضاحاً لمزاياه وأغراضه . ولا بن البيطار كتاب آخر مشهور وهو « المغني في الأدوية المفردة » .

ومن الكتب المتداولة في هذا الشأن كتاب « المعتمد في الأدوية المفردة » مؤلفه شرقي ، وهو الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول الغساني التركماني صاحب اليمن المتوفى سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٩٥ م استخرجه من كتاب ابن البيطار ومن كتاب ابن جزلة المعروف بالمنهاج ومن كتاب حسن بن ابراهيم التفليسي ومن ابدال الزهراوي وابدال أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد المعروف بابن الجزار ، كما يذكر مؤلفه ذلك في مقدمته ، وقد حقق وطبع عدة مرات ، ولذلك آثرنا ذكره .

ثم جاء في القرن العاشر المؤلف السوري الضرير داود الأنطاكي وكتب كتابه المشهور « تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجائب » . عاش في القاهرة وتوفي في مكة عام ١٠٠٨ هـ / ١٦٠٠ م .

وهكذا يستبين ازدهار التأليف في مجال الصيدلة والتحري عن خصائص العقاقير والحشائش الطبية ازدهاراً قل مثيله وهو عنوان فخر للعلماء العرب . وقد أخذ عنهم علماء الغرب حين ترجموا كتبهم الى اللاتينية وهكذا دخلت ألفاظ كثيرة الى اللاتينية المتأخرة على طريق هذه الترجمات بالاضافة الى المعلومات المهمة في هذا الميدان .

ان أفضل ما في العلم العربي اعتماد التجربة فهي المحك الناصع والفيصل

القاطع . وهذا ما وجه العلم الانساني وجهة جديدة تجاوزت العلم اليوناني وغيره . ولعل أجمل ما نختم به هذه العجالة قول أبي مروان عبد الملك بن زهر في كتابه التيسير (ص ٣٢٦ - ٣٢٧) : « كل ما ذكرته في كتابي هذا وأثبتته لا شك أنه سيروم من يتعسف تزييفه بالكلام وأنا أحاكمهم كنت حياً أو ميتاً الى التجربة . فان الكلام يدخله الصدق والكذب ، والحُجج منها ما هو برهان ومنها ما هو اقناع ومنها ما هو سفسطة ومنها ما هو تخيل . والبرهان هو ميزان حق في الحجج . لكن كثيراً ما تدخل فيه أقوال اما جدلية اقناعية واما سفسطة واما أقوال تخيلية . وليس يفرّق بين الأقوال الا البصير بعلم المنطق وخاصة ان كان بصيراً بعلم الطب فحينئذ يمكنه أن يميز الحق من الباطل فيما يكون له بالطب مُعلّق . وكثيراً ما قد يُموّه عليه من شأنه اللجاجة . والتجربة وحدها هي التي تثبت الحقائق وتذهب البواطل » .

د . عبد الكريم اليافي



□ الحواشي :

٢ - لعية التيس هو باللاتينية
tragopogon pratensis
ومعناها لعية التيس ترجمة عن العربية
Compositae وهو من الفصيلة المركبة
وهو بالفرنسية
salsifis des près, barbe de bouc
وبالانكليزية
yellow goat's beard
له جذور تطبخ وتؤكل

١٠ - زرشك هو باللاتينية
berberis vulgaris
من فصيلة البرباريسيات
berberidaceae
وهو بالفرنسية
vinettier, épine-vinette
وبالانكليزية
pipperidge, berberry, barberry
ويقال له انبرباريس واثرار